المواقف السياسية للشيخ محمد البشير الإبراهيمي

د. محمد غازي

أستاذ محاضر، قسم أ

المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة

Résumé:

La réforme religieuse est une réforme sociale, comme la réforme sociale est – au fond – est une réforme politique. En Islam, on ne peut pas mettre un trait séparatif entre ces concepts: Religieux, social, politique, parce que la religion islamique enveloppe la vie humaine dans tous ses domaines.

Cette vérité fait la base principale du projet réformiste d'association des oulamas musulmans algériens dont le Cheikh Mohammed el Bachir el Ibrahimi qui a était l'un de ses leaders après le Cheikh Abdelhamid Ben Badis. Il est devenu le président de cette association après la mort de ce dernier.

Cet article a pour but d'exposer quelques idées politiques d'el_ Ibrahimi qui concernent la méthode de lutte contre le colonialisme français, et ses positions sur la question algérienne dans les projets politiques des partis du mouvement national avant le déclanchement de la guerre de libération le 1er Novembre 1954.

En fin de cet article, nous exposons les idées d'el_ Ibrahimi en ce qui concerne l'identité de l'Etat algérien après l'obtention de la souveraineté nationale le 5 Juillet 1962, sachant que le Cheikh vivait dans l'Algérie indépendante jusqu'à sa mort le 20 Mai 1965.

الكلمات المفتاحية: محمد البشير الإبراهيمي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الثورة الجزائرية، عبد الحميد بن باديس، الإصلاح، الاستعمار الفرنسي.

تمهيد:

يتطلب نجاح إي فكر سياسي الانطلاق من واقع المجتمع لكي يتمكن من تقديم حلول مناسبة للمشاكل التي يعيشها هذا المجتمع، ثم العمل على تجسيد هذه الحلول في الواقع العملي، فإذا علمنا أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1889 - 1965) قد عاش في فترة

كانت تعاني فيها الجزائر من الاستعمار الفرنسي بكل ويلاته كان لزاما على هذا المفكر المصلح أن يكون له موقف واضح من هذه الآفة المتسلطة على وطنه.

يقتضي العمل السياسي الميداني البحث عن شركاء سياسيين سواء من داخل التنظيم أو من خارجه، وبالتالي يجب تقييم الأفكار المطروحة في المجتمع من أجل تحديد هؤلاء الشركاء الذين يتم العمل معهم، خصوصا إذا علمنا أن مشروع المجتمع الجزائري آنذاك . كان مطروحا لمواجهة مشروع تدعمه أعتى قوة عالمية، و هي فرنسا.

إن العمل على إيجاد شركاء في العمل السياسي لمواجهة المشروع الاستعماري في الجزائر لا يجب أن يقتصر على الداخل، بل يتطلب التعريف بالقضية الجزائرية على المستوى الدولي قصد إيجاد الدعم اللازم لتحقيق النجاح المنشود,

لقد عاش الإبراهيمي فترة وجيزة في عهد الاستقلال، و هو يرى ثمرة كفاحه الطويل تتحول من مجرد فكرة إلى واقع معيش، فكان لزاما عليه أن يعمل على تحديد النهج الذي يتم من خلاله البناء الاجتماعي و السياسي للدولة الجزائرية المستقلة,

يمثل ما سنعرضه في هذا المقال جزءا يسيرا من تلك المواقف السياسية لهذا الرجل الذي وهب نفسه للجزائر، فهذه المواقف أوسع بكثير مما سنذكره في هذا المجال، ففيم تتمثل هذه المواقف؟ وما منطلقاتها؟

يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أبرز الشخصيات الإصلاحية في الجزائر كما أنه يعد من أبرز مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أعلن عن قيامها سنة 1931، وكان يترأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889 - 1940) وقد آلت رئاستها بعد وفاته إلى الإبراهيمي الذي قادها إلى غاية الإعلان عن حلها ستة 1956.

تعتبر المواقف التي نعرضها في هذا المجال خاصة بالإبراهيمي سواء باعتباره عضوا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو باعتباره عالما مصلحا له مواقف من قضايا أمته,

موقفه من القضية الجزائرية:

دخلت الجزائر سنة1830 مرحلة عصيبة في تاريخها أوقعتها تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي أراد أن يطمس بالقوة معالم هوية الشعب الجزائري، فهو لم يكتف بمصادرة ممتلكات هذا الشعب، بل عمل على تعذيبه و تقتيله و تشريده و تهجيره من وطنه قصد إخماد روح المقاومة لديه. لكن هذه الروح لم تخمد، فقد ظلت متأججة بالرغم من هذه الممارسات التي لم تعرف البشرية لها مثيلا، حيث كانت هذه المقاومة تتوقف من فترة إلى أخرى لتأخذ استراحة المحارب الذي يسكن تارة لينطلق من جديد، ولقد انطلقت هده الروح من جديد مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ورفيق دربه الشيخ عبد الحميد بن باديس.

الاستعمار الفرنسي:

لم تستعمل كلمة (استعمار) بالنسبة للشيخ محمد البشير الإبراهيمي في محلها، بل استعملت ضد معناها الحقيقي، فهي من كلمة (عمر) ضد كلمة (خرب)، وهو يستغرب كيف عمل الجيل الذي سبقه على نقل هذه الكلمة مباشرة من اللغات الأوروبية ووظفها دون أن يتصرف في معناها الحقيقي، فهذا تضليل ما بعده تضليل، لأنه يخفي الصورة القبيحة وراء صورة جميلة، حيث نراه يقول:<< كلمة الاستعمار آتية من '' عمر '' ضد خرب مع أن التفسير العملي لهذه الكلمة هو الخراب و التخريب، و ليس فيها شيء من معنى الإعمار و التعمير >>1

ينطبق المعنى الحقيقي للاستعمار على الاستعمار الفرنسي في الجزائر الذي عمل على تخريب النفوس، وأي تخريب أخطر من تخريب الإنسان. إن الإبراهيمي يتساءل عن سبب

الرذائل التي ارتكبها الجيش الفرنسي في حق أمته أولا ثم في حق الشعب الجزائري:<< إن المفروض في الحضارة أنها تهذب الأخلاق و تلطف الحيوانية فتدنيها من الرحمة و تشيع الفضائل في النفوس، و أن الجندي هو أولى الناس بالتربية الفاضلة و الأخلاق الحميدة، فما لهذا الجيش الذي لم تترك أمته فضيلة إلا انتحلتها لنفسها، و لا حضارة للأقدمين إلا ادعت أنها وارثتها بالفرض و التعصب يفضح أمته هذه الفضيحة الشنعاء و يعقها هذا العقوق الأطلح و يسجل عليها خزي التاريخ و لعنة الأجيال >>[2]

يتبين لنا من خلال هذا القول أن فرنسا التي حملت شعار القيم و العصرنة في العالم الغربي الحديث و عملت على ترسيخها في المجتمع الفرنسي بعد ثورة 1789 لم تعمل بالمثل في الجزائر بعد أن احتلتها سنة 1832،بل إن كل ممارستها كانت متجهة نحو النقيض من هدا تماما، فكل هذه القيم كانت مغيبة في تعاملها مع الشعب الجزائري، حيث حاولت أن تجتثه من الجذور، فلم يكن له الحق في تعلم لغته وممارسة شعائره الدينية. لقد بسطت السلطة الاستعمارية نفوذها على المساجد بالرغم من أن مبادئ الثورة الفرنسية تنص على أن الدولة لائيكية لا يمكن لها بأي حال من الأحوال التدخل في الشؤون الدينية. لهذا كان من بين الأصول التي سطرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في دعوتها الإصلاحية مطالبة الحكومة الفرنسية بعدم التدخل في تعيين الموظفين الدينيين،وقد وصف الإبراهيمي هذا التدخل في شؤون الدين قائلا:<< بدأ الاحتلال بخطة كانت مرسومة من قبل وكشف عن مقاصده المبيتة للإسلام بعد أسابيع من احتلال الجزائر العاصمة، و لم ينتظر انتهاء الحركات العسكرية التي طالت عشرات السنين، كأن به شوقا مبرحا إلى الانتقام من الإسلام و إطفاء ما يكنه من حقد عليه: بدأ بمصادرة الأوقاف الإسلامية بجميع أنواعها في العاصمة و إلحاقها بأملاك الدولة المحتلة، و أصدر قانونا بتعميم المصادرة في كل شبر يحتله، ثم عمد إلى المساجد، فأحال بعضها كنائس، و بعضها مرافق دنيوية عامة، و هدم بعضها لإنشاء الشوارع و الميادين >>[3] . أين حرية العبادة من هذه الممارسات كلها

قام الاستعمار الفرنسي بكل هذه الممارسات في حق الدين الإسلامي في الجزائر، لأنه كان يعلم << أنه لابقاء لسلطانه و جبروته مادام القرآن محفوظا و العقائد الصحيحة ثابتة، و الشعائر المرفوعة مقامة، و السنن المأثورة مشهودة و لغة القرآن مالكة للألسنة >>4

أراد الإبراهيمي أن يبين من خلال هذا أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كيان غريب تجب مقاومته، و هذه المقاومة حق مشروع بالنسبة للشعب الجزائري الذي يطمح أن يعيش في وطنه متمسكا بدينه و لغته.

المؤتمر الإسلامي الجزائري بباريس سنة 1936:

كانت الحكومة الفرنسية في الجزائر تعمد إلى بعض المسكنات لإسكات الشعب الجزائري كلما اشتدت عليها وطأته، و من بين هذه المسكنات التي لجأت إليها سنة 1936 دعوتها إلى عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي دعت إليه كل القوى الفاعلة في الجزائر من جمعيات و أحزاب سياسية وشخصيات، و قد أجابت الدعوة بعض الفعالية و رفض البعض الآخر، و كانت جمعية العلماء المسلمين من بين المجيبين هذه الدعوة، حيث سافر وفدها إلى باريس بمشاركة رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، و نائبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي ألقى كلمة باسم الجمعية حدد فيها دواعي مشاركتها و مطالبها.

بالنسبة لدواعي مشاركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المؤتمر ذكرها الإبراهيمي فيما يلي:

فوز الجبهة الشعبية بالانتخابات التشريعية: قال الإبراهيمي في دعوته إلى المشاركة في المؤتمر الإسلامي الجزائري:<< لما فازت الأحزاب الشعبية، و مبادؤها الإنسانية معروفة لدى جميع الناس، و بادرت بالإعلان بلسان صحفها و الإفصاح عما تبيته للشعب الجزائري من إصلاح سياسي و اجتماعي، و ما تضمره من خير و رحمة هو أهل لهما، و احتف بتلك التصريحات و الوعود ما دل على أنها ليست من جنس الوعود السالفة التي لم ينجز

منها ولا واحد، لما وقع كل ذلك، كان من المعقول جدا أن يكون هوى المسلمين الجزائريين مع الجبهة الشعبية و ميلهم إليها و أن يقابلوا الخير بمثله، خصوصا و قد كانت تلك التصريحات و الوعود من أحزاب اليسار مصوغة في قالب يقتضي العطف على الشعب الجزائري و الاعتراف بجميله و أهليته لتلك الحقوق، و يا ما أشرف عرفان الجميل إذا كان متبادلا بين الطرفين >>5.

نرى أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان رجلا سياسيا بارعا، فلم يمنعه تضلعه في اللغة العربية و علومها و تضلعه في العلوم الشرعية من التعامل سياسيا مع كتلة اليسار الفرنسي التي أعلنت تعاطفها مع الشعب الجزائري و مد يدها إليه من أجل العمل على تجاوز أوضاعه المزرية، فقد رأى الشيخ أن هذه فرصة لا يجب تضييعها. كما أننا نلاحظ أن خطته السياسية كانت قائمة على التغيير التدريجي، لأنه كان يعلم أن فرنسا لا يمكن حملها على التغيير الشامل، فما دامت مستعدة لتحقيق بعض الحقوق لهذا الشعب، فلم يسعى البعض إلى تضييعها؟!

درء المفاسد وجلب المصالح: يعتبر هذا العامل من جملة العوامل التي جعلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تقبل بالمشاركة في المؤتمر الإسلامي الجزائري، و يعتبر هذا العامل أيضا مهيمنا على باقي العوامل كلها، فقد قال الشيخ في هذا الصدد:<< ترجع هذه المطالب ـ المطالب التي حملتها الجمعية إلى المؤتمر ـ إلى أصلين: مفاسد تدرأ و مصالح تجلب، و قد تستقل إحداهما عن الأخرى، وقد تتلازمان >>6 .

استندت سياسة الإبراهيمي في تحديد هذا العامل إلى قاعدة في أصول الفقه مفادها أن مقاصد الشريعة ترمي إلى درء المفاسد و جلب المصالح، فهو يرى أن إلغاء لفظ (الأندجينا) من القانون الفرنسي المطبق في الجزائر يعتبر درءا للمفسدة، دون أن تترتب عنه مصلحة تذكر. كما أن إبطال العمل بقانون حظر الصحف العربية يعد درءا للمفسدة و جلبا للمصلحة في آن واحد.

من هنا يتبين لنا أن الفكر السياسي للإبراهيمي كان ملتزما بضوابط الشرع الإسلامي، سواء كان ذلك على المستوى النظري أو على المستوى العملي.

تحليل مطالب الجمعية في المؤتمر:

حمل وفد الجمعية المشارك في المؤتمر جملة من المطالب إلى باريس تتمثل فيما يلي:

إن الأمة الجزائرية قد شاركت الأمة الفرنسية في مواقف الموت، فمن الحق و العدل أن تساويها في مواقف الحياة.

إن الحياة تشترى بالأرواح والأبدان، والأمة الجزائرية قد بذلت أرواحها وأبدانها مع الأمة الفرنسية و مثلها، و من دفع الثمن فمن الحق و العدل أن يأخذ المثمن.

إن الأمة الجزائرية سمعت مكن الأمة الفرنسية في أيام الشدة ومواطن اليأس أنهما يستويان في السلم كما تساويا في الحرب، فأما الذين ماتوا في تلك الأيام، فقد ماتوا وقلوبهم تنعم بذلك الأمل المعسول، وأما الذين بقوا فبقيت قلوبهم تتجرع الخيبة بعد الخيبة، و تنطوي على الأمل بعد الألم.

إن الأمة الفرنسية لا تستغني عن الأمة الجزائرية، كما لا تستغني الأمة الجزائرية عنها، فمن الخير لهما معا ألا تشعر واحدة منهما من ناحية الأخرى بنقص في الود أو ظلم في الحقوق.[7]

هذه النقاط عبارة عن مقدمة حررها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي تمهيدا للائحة المطالب التي حملها وفد الجمعية إلى المؤتمر، وقد حاول من خلالها أن يؤسس لها تأسيسا سياسيا، حيث أن هذه النقاط تنصب كلها في إطار مبادئ العدل والمساواة التي تقوم عليها كل سياسة راشدة بما فيها سياسة النظام الجمهوري التي كانت فرنسا سباقة إلى حمل لوائها بعد ثورة 1789.

إذا كانت العدالة تقتضي أن يقوم كل فرد بالواجبات المسندة إليه، فمن العدل أن ينال حقوقه أيضا، و السياسة الفرنسية تقر بهذا، فلم لا تعمل مع الشعب الجزائري بمقتضى هذا؟!

لقد شارك هذا الشعب الأمة الفرنسية في كل آلامها، حيث أنها زجت به في كل الحروب التي خاضتها ضد الأمم الأخرى، والحرب العالمية الأولى دليل على ذلك.

لكن هذا الشعب المقهور لم ينل بالمقابل سوى مزيد من القهر والتهميش والحرمان من أبسط مقومات الحياة الكريمة. كما أن صياغة هذه المقدمة دلت على أن الأمة الجزائرية متميزة عن الأمة الفرنسية، وهذا خلاف ما كانت تدعو إليه الحكومة الفرنسية في الجزائر التي كانت تعتبر هذا الوطن امتدادا لأراضيها وراء البحار.

أما عن المطالب في حد ذاتها فقد صاغها الإبراهيمي فيما يلي:

التسوية في عدد النواب الجزائريين بعدد النواب الفرنسيين في جميع المجالس، ثم مطلب توحيد النيابة البرلمانية بكلا المجلسين بحيث يشارك في انتخاب النواب البرلمانيين مشاركة فعلية جميع سكان الجزائر على اختلاف أجناسهم وعقائدهم مع بقاء المسلمين على ذاتيتهم الإسلامية.

اعتبار اللغة العربية لغة رسمية مثل اللغة الفرنسية في التعليم والإدارة و الصحافة.

تسليم المساجد للمسلمين مع اقتطاع مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال قوانين فصل الدين عن الحكومة.

تأسيس كلية لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية لتخريج موظفي المساجد بمختلف فئاتهم وأصنافهم.

تنظيم القضاء وفق أحكام الشريعة الإسلامية و إصلاح المدارس التي يتخرج منها القضاة و أعوانهم على أساس هذه الأحكام.8

كل هذه المطالب التي صاغها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقلمه بلسان الجمعية نابعة من ذاتية الشعب الجزائري المتمثلة أساسا في الإسلام، اللغة العربية، والوطن. كما أن هذه المطالب، و إن لم تحمل إشارة إلى المطالبة بالاستقلال لا تلميحا و لا تصريحا، فإنها تعتبر من الممهدات إليه، فما معنى المطالبة بالتسوية بين الفرنسيين و الجزائريين في المجالس النيابية؟! ألا يحمل هذا إشارة إلى أن مصير الجزائريين يجب أن يكون بأيديهم؟!

ثم إن المطالبة بالحق في تسيير الشؤون الدينية وتعليم الإسلام واللغة العربية يعتبر ترسيخا لمقومات الهوية الجزائرية المتميزة عن الهوية الفرنسية، وهذا هو جوهر القضية الجزائرية. كما أننا نلاحظ الحنكة السياسية للشيخ الإبراهيمي في صياغة هذه القرارات بانطلاقه من مبادئ الجمهورية الفرنسية في المطالبة بحقوق الشعب الجزائري تجاهها، فإن أذعنت لهذه المطالب حقق الشعب الجزائري بهذا الإذعان مكسبا هاما، وإن رفضت هذه المطالب وقعت في التناقض مع المبادئ التي ترفعها، وبالتالي تفقد مصداقيتها وثقة الجزائريين فيها ليبقى الباب مفتوحا على خيارات أخرى تجر عليها الويلات.

لقيت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نقدا لاذعا بسبب مشاركتها في المؤتمر باعتبارها جمعية دينية إصلاحية، فكيف يحق لها أن تشارك في مؤتمر سياسي؟!

لقد رد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على هؤلاء النقاد من أبناء الحركة الوطنية في الجزائر قائلا: << وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم عول السياسة و تفويت الفرصة علينا بمثل هذه الترهات، و كم أضاعت هذه الترهات من فرص >>9

نلاحظ من خلال هذا القول أن الإبراهيمي عندما يخاطب الجزائريين . بمشاربهم المختلفة . لا يخاطبهم بلسان الفصل بين الدين و السياسة على أساس أن دينهم الإسلام لا

يعرف مثل هذا الفصل، فهذا الدين يريد من المسلم أن يكون مسلما في المسجد و خارجه في كل مجالات الحياة، فهو عقيدة تنطوي على عبادات و أحكام وسلوكات، فكيف نريد أن يكون الجزائري مسلما في المسجد و شخصا آخر غيره خارجه؟! أليس هذا مدعاة للتناقض مع مبادئ الإسلام التي يقر كل جزائري بها؟!

علق الشيخ محمد البشير الإبراهيمي آمالا كبيرة على المؤتمر الإسلامي الجزائري باعتباره الحل الأمثل لإخراج الجزائر من أزمتها وفرصة لتوحيد كلمة الأمة و نيل جزء كبير من حقوقها. لذا نراه يتصدى لكل من عارض المشاركة في هذا المؤتمر من الجزائريين، حيث قال:<< حسبك لا قيصر بعد اليوم. إن ما تم في النوم لا يتم في اليقظة، و ما تم مع الفراق لا يتم مع الاجتماع، فتعال نتقاسم الحظوظ في الحياة، ثم لا حرج إذا طالبتني بمقاسمة الحظوظ في الممات، فأعرض كلمتي على الحق تجده تفسيرها، و على العدل تجده مدلولها، وعلى قائمة الأخوة و المساواة تجدها شواهد لها .... إن الإسلام كامن في هذه النفوس كمون النار في الحجر، و قد قدح المؤتمر زنده فأورى، إن في نفس هذه الأمة قبسا من الحياة يشع منه نورها، فإذا هي مهدية، و تتقدح منه نارها، فإذا هي قوية، و إن هذا القبس لا يخبو مادام الإسلام و العربية >>[10]

رأى الإبراهيمي في المؤتمر الإسلامي الجزائري (1936) فرصة يجب على الجزائر ألا تضيعها. كما أنه فرصة لها لإسماع صوتها في عاصمة المستعمر نفسه، وهكذا يظهر للفرنسيين أنفسهم من ذوي الضمائر الحية أن الجزائريين ليسوا همجا ولا متوحشين، بل هم متحضرون دعاة سلام يريدون أن يعيشوا في بلدهم متمتعين بحقوقهم آمنين على ممتلكاتهم متمسكين بدينهم يتكلمون لغتهم العربية.

لكن فرنسا ـ كعادتها في كل مرة ـ كانت تسعى إلى مخادعة الجزائريين، وكانت الجمعية في كل مرة تغير من أساليبها في التعامل مع حكومة الاستعمار، دون أن تتراجع عن مبادئها، فرجالاتها كانوا متيقنين بأن الساسة الفرنسيين كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم،

وهكذا ذهبت قرارات هذا المؤتمر أدراج الرياح كغيرها من الوعود المعسولة التي الاستعمار يمني الجزائريين بها.

ثورة التحرير الكبرى (1954-1962):

بعد أن استنفد الشعب الجزائري بجمعياته وأحزابه وزعمائه كل الطرق السياسية السلمية لتحقيق حقوقه في العيش كريما على أرضه، حيث ارتكبت فرنسا في حقه أبشع الجرائم، فهي لم تكتف بأن زجت به مرة أخرى في أتون حرب عالمية ثانية (1939 -1945)، بل ألحقت به أشد الأذى، وذلك في أحداث 8 ماي 1945 حين قتلت منه في أيام قلائل ما يزيد عن 45000 جزائري. كما أنه سجنت قادته من أقطاب الإصلاح في الجمعية أمثال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي. هذا ما جعل المجال مفتوحا أمام الجزائريين لاتخاذ خيارات أخرى تمثلت في الكفاح المسلح الذي انطلقت شرارته الأولى في الفاتح من شهر نوفمبر 1954، و كان لأعضاء الجمعية دور بارز فيه، لأنهم تلقوا في مدارسها و معاهدها مبادئ الوطنية التي جعلتهم يقدمون أرواحهم فداء للوطن، خصوصا إذا علمنا أن المستعمر كان يسعى للقضاء على الإسلام في داره، و بالتالي فإن مقاومته جهاد، و الموت فيه شهادة في سبيل الله.

بقيت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تواصل نشاطها الإصلاحي بقيادة رئيسها الثاني الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بعد اندلاع الثورة التحريرية، حيث عملت على تقديم الدعم المادي والبشري لها حتى أعلنت طواعية عن حلها سنة 1956 من أجل توحيد كلمة الشعب الجزائري تحت راية جبهة التحرير الوطني في جهاده ضد المستعمر، و قد كانت للإبراهيمي مواقف جد إيجابية من هذه الثورة، فقد قام برحلته الثانية إلى المشرق من أجل أن يحشد الدعم لها.

مما يدل على أن الإبراهيمي كان مساندا للثورة منذ انطلاقتها نشره بيانا باسم مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة وقعه رفقة الشيخ الفضيل الورتلاني، ومما جاء فيه:<< أيها الإخوة الأحرار: هلموا إلى الكفاح المسلح. إننا كلما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، و ذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون، كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا و احتقرنا المسلمين، و خجلنا من الله أن يرانا و يراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، و كلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها و ألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح، فهو الذي يسقط علينا الواجب، و يدفع عنا و عن ديننا العار، فسيروا على بركة الله وعونه و توفيقه، غلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين: إما موت وراءه الجنة، و إما حياة وراءها العزة و الكرامة>>11. صدر هذا البيان عن الجمعية يوم 15 نوفمبر 1954، أي بأيام قلائل بعد اندلاع الثورة التحريرية الكبرى، وكان مشبعا بتعاليم الدين الإسلامي الذي اعتبر بمثابة شحنة روحية لهذه الثورة.

رأى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأن الثورة التحريرية المجيدة نهاية حتمية لسياسة المستعمر البليدة التي لم تتعظ بما حدث لها في تونس ومراكش، وأن سنن التاريخ قد جرت على فرنسا كما جرت على الأمم العاتية التي سبقتها، وهذه الثورة ـ في نظره ـ أثبتت مجموعة من الحقائق أهمها:

تسفيه دعوى فرنسا المفترية التي تزعم أن الجزائر راضية مطمئنة بالاستعمار.

تبيين أن الرضا بالاستعمار كفر، والاطمئنان لحكمه ذل، وأن الثورة على ظلمه فرض

شد عضد الإخوة الجاهدين في تونس ومراكش، وتقوية آمالهم في النصر.

إيصال حركة الجهاد ضد المعتدين الظالمين الذي هو طبيعة في ذاتية الجزائري عبر العصور.

الثأر للشعب الجزائري الذي أذاق الاستعمار سوء العذاب

نفهم . من خلال هذا . أن الشيخ الإبراهيمي لم يكن مساندا للثورة الجزائرية فحسب، بل كان محرضا عليها باعتباره إياها جهادا في سبيل الله، وهذا من أوكد الواجبات. كما أنه كان فخورا ببطولات المجاهدين وتضحياتهم في سبيل الله.

لا يقف الشيخ الإبراهيمي من الثورة التحريرية الكبرى مثل هذه المواقف فقط، بل يذهب إلى حد وصفها بأنها أعظم معركة في التاريخ بعد عصر النبوة، فيحق بأن تنتفض لها شعوب القارتين: أفريقيا و آسيا، حيث قال:<< يشهد التاريخ المنصف بأنها . الثورة الجزائرية . أعظم معركة سجلها بين الحق و الباطل، و بين الحرية و الاستعباد، و بين المظلوم و الظالم، و بين الخير و الشر، و بين الضعف و القوة، و يشهد التأريخ كذلك أنه لمك يشهد بعد عصر النبوة معركة تنتصر فيها الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، و يتجلى فيها سر الإيمان و سر الروح مثل هذه المعارك الدائرة في الجزائر، حيث تنازل فيها قوى الخير، قليلة العدد معدومة المدد وقوى من الشر كثيرة الأعداد، موفورة الإمداد، متصلة بالإسناد، كاملة الاستعداد، فتدحرها و تنتصر عليها >>[13].

إذا كانت ثورة هذا هو شأنها، فكيف يحق لعاقل أن يتقاعس عنها و لا يشارك فيها؟! كيف لا يمكن للإبراهيمي ألا يضطلع بدوره فيها؟! لقد دعمها الشيخ بشتى الوسائل، بالبيانات التي كان يوقعها عن مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في القاهرة، بالخطب التي يلقيها على المنابر المختلفة، بالمقالات التي كان ينشرها في الصحف، و لم يكتف بكل هذان بل ذهب به الأمر إلى أن جاب العديد من الأقطار العربية و الإسلامية، و قد بلغ من الكبر عتيا، لكي يحشد الدعم لهذه الثورة المباركة، فكانت النتيجة أن استجابت هذه الشعوب لهذا النداء، و حظيت الثورة بدعم داخلي، حيث كانت لأغلبية الشعب الجزائري مشاركة فيها بمختلف الوسائل، و حظيت بدعم خارجي أيضا بفعل رابطة العروبة و الإسلام التي كانت تشد الجزائر إلى غيرها من أقطار المشرق. لقد قال الشيخ واصفا هذا الدعم:<< لم يشهد التاريخ شعبا ثار لحرماته المنتهكة، فهز العالم من أطرافه، و انتصر له سكان القارتين مثلما

شهد من الشعب الجزائري و شعوب آسيا و أفريقيا، تداعت هذه الشعوب لميقات يوم معلوم دعوه يوم الجزائر يعقدون فيه الاجتماعات لإعلان السخط و إقامة النكير على الاستعمار عموما و على الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا خصوصا، و لجمع الإعانات المالية لينتعش بها إخوانهم الجزائريون وتتجدد بها قواهم على قتال عدوهم >>14.

لم يكن تدعيم الشيخ الإبراهيمي للثورة الجزائرية مجرد أقوال، بل ترجم هذه الأقوال إلى أفعال، فمع كل هذه الأعمال كانت له خطة في كيفية نجاح هذه الثورة، و قد قامت هذه الخطة على أساس الاستفادة من الثورات القريبة زمنيا من الثورة الجزائرية، حيث أكد في هذا على الثورة الليبية ضد الإيطاليين بقيادة عمر المختار في الجبل الأخضر، و على الثورة في الهند الصينية ضد فرنسا، فالثورة الليبية تمكن الاستفادة منها باعتبار اشتراك الشعبين الليبي و الجزائري في نفس المقومات، و يجمع الثورة الجزائرية بالثورة في الهند الصينية عامل مشترك متمثل في كون العدو واحدا، وهو فرنسا، ثم الاستفادة في هذا الصدد من الخبرات التي اكتسبها المحاربون الجزائريون المشاركون في هذه الثورة.

يرى الإبراهيمي بأن الثورة الجزائرية لا يكتب لها النجاح إلا بالالتزام بثلاثة أشياء:<<الإطالة والتعميم والسلاح... فثورة ليبيا على الاستعمار الإيطالي دامت عشرات السنين، حتى أقضت مضاجع الطاليان من عسكريين وسياسيين، وثورة الهند الصينية على الفرنسيين الغاصبين دامت ثمان سنوات.... و أما تعميمها فهو شرط أساسي لنجاحها لأنه يوزع القوى الفرنسية، و يقوي تأثير الرعب في نفوس المعمرين أصحاب المزارع و الضياع... وأما التسليح فهو أصعب الأشياء، لأن الجزائر محاطة بمراكش وتونس ولا يمكن التسليح إلا منهما، وفرنسا محتاطة من عشرات السنين لهذه القضية... ومع الجد والعزيمة وحسن التدبير يهون كل عسير>>15.

هذا . إذن . جزء من مواقف الإبراهيمي من الثورة الجزائرية التي كان مقتنعا بها، وتبنتها الجمعية التي كان يترأسها، وكل هذا منح مزيدا من الدعم لهذه الثورة التي انتهت بدحر

المستعمر الفرنسي إلى ما وراء البحار، وحققت الجزائر ما كانت تطمح إليه من العيش في كنف الاستقلال في الخامس من شهر جويلية سنة 1962.

موقفه من الاتجاه السياسي للدولة الجزائرية في بداية الاستقلال:

بذل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي معظم سنوات عمره من مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة في خدمة الإسلام و اللغة العربية و الجزائر، و ها هو يرى اليوم ثمرة جهاده الطويل تتحقق، و قد جاوز السبعين من عمره، و قد أخذ منه المرض مأخذا، فهو كما وصف حالته في هذه المرحلة:<< بأنها تصارع عدة أمراض حادة منها: السكر و الأعصاب و الروماتيزم و العيون... إني أسير دقيقة لأستريح دقيقة أخرى >>16. لكنه بالرغم من كل هذا يحق له أن يفرح، وهو يرى ثمرة جهاده الطويل تتحقق، ويترتب عن هذا الفرح العمل على بناء الوطن وتعمير الأرض والمشاركة في سياسة الدولة بالرأي والنصيحة، خصوصا إذا علمنا أن الشيخ كان من أعلام الجزائر وأبنائها المخلصين.

في هذه الفترة نبه الإبراهيمي إلى أن فرنسا إن تركت الأرض، فإنها لن تترك مصالحها في الجزائر، بكل ما تحمله كلمة (مصالح) من معنى، سواء كانت مادية أو ثقافية. لهذا نراه يحذر من هذا الخطر في أول خطبة له بمسجد كتشاوة بعد تحويله من كنيسة إلى مسجد من مساجد الجزائر العاصمة، وكان ذلك يوم الجمعة 5 من جمادى الثانية سنة 1382هجري الموافق ل 2 من نوفمبر سنة 1962 للميلاد إذ قال:<< يا معشر الجزائريين، إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا . صلى الله عليه و سلم . ((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك)) فهو قد خرج من أرضكم هذه، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، و لم يخرج من ألسنتكم، و لم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها >>17.

إن الاستعمار الذي عمل على ترسيخ جذوره في الجزائر طيلة قرن واثنتين وثلاثين سنة ليس من السهل عليه أن يترك هذه الأرض، فقد عمل على تكوين نخبة من الجزائريين ترعى مصالحه الاقتصادية والثقافية، وقد آلت إليها في السنوات الأولى من الاستقلال مقاليد التسيير الإداري، وهذا ما يبقي خطره قائما في هذه الديار رغم خروجه من الأرض وقيام الدولة الجزائرية ذات السيادة. إن هذه السيادة لا يمكن لها أن تتم إلا بعودة الأمة إلى مقومات ذاتيتها، و هذا ما كان يعمل الشيخ الإبراهيمي على تكريسه وترسيخه لدى الشعب الجزائري، فإن لم يكن يدعو إلى الاستقلال قبل اندلاع الثورة الجزائرية، فإن كل نشاطاته كانت تصب في هذا الإطار، حيث ورد في حوار أجرته معه جريدة الجمهورية القاهرية بتاريخ 5 جويلية 1962 ما يلي:<<كان الدين يعطينا كل شيء... و يمنحنا كل شيء... حتى إذا ما قتلنا في هذه الحرب... فنحن شهداء... و كنا نعطي للفرنسيين كل هذا في صورة دينية بحتة... فنحن نجتمع للصلاة... و نحن نعلم الناس الدين... و نحن ندرس القواعد و النحو... و يكفي أن يعرف الشعب نفسه... كيف يقوم بمهمة التحرير؟ إن تدعه يتعلم لغته... و دينه... و تراثه، فيكتشف نفسه... و يقوم بالمعجزة >>[18]

إننا عندما نثور يجب أن نعلم لماذا نثور، وإلام نستند في ثورتنا حتى إذا آتت هذه الثورة أكلها . بإذن ربها . عملنا على تحقيق ما كنا نطمح إليه من بناء نهضوي حضاري. إن مشروع البناء هذا هو الكفيل بإنجاح الثورة، و قد كان كذلك بالنسبة للثورة الجزائرية، فكيف يمكن لهذه الأمة، و قد نالت ما كانت تطمح إليه من حرية و استقلال أن تنتهج نهجا معاكسا ما كانت تضحي من أجله منذ أمد بعيد؟! و هذا بفعل هذه الفئة المتشبعة بأفكار فرنسا و مبادئها. إن فئة كهذه يجب أن يعمل الشعب على محاصرتها، وهذا في إطار القضاء على مخلفات الاستعمار، وما أكثر هذه المخلفات. إن تاريخ الجزائر مع فرنسا تاريخ مرير ملؤه الدم والدموع.

بعد أن نالت الجزائر استقلالها ظهرت خلافات بين قادة الثورة و القيادة السياسية، و قد اعتبرها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عادية، لأنها كانت قائمة على أساس رؤى متباينة لمصلحة الوطن، و قد كان الشيخ مستعدا للتدخل من أجل فك هذه النزاعات، حيث قال:<< نعم ... لن أتردد... و لكن أعتقد أنه سيزول سريعا... إن هذا الخلاف ضروري و حتمي، و يحدث دائما... و لكن لا يجب أن تتسع هوته... و يجب أن يتوقف... و إلا أصبحت قضية الوطن في خطر >>[19].

كان هناك في بداية الاستقلال نوع من الانحراف في القيادة السياسية للدولة الجزائرية، وهذا راجع إلى عدم الخبرة، فالجزائري لم يمارس حقه في أن يحكم نفسه منذ أمد بعيد، فهذا أمر طبيعي جدا، و لكن ما لم يكن طبيعيا هو أن تصم هذه القيادة آذانها عن الدعوات المنادية بالإصلاح، وأن تمد يدها بالسوء لمن كان بالأمس القريب رفيقا في مواجهة العدو، و قد تحمل الإبراهيمي نصيبا من هذه المعاملة السيئة رغم تقدمه في السن، حيث ضرب عليه الحضر في بيته على إثر البيان الذي أصدره للقيادة والشعب الجزائري بتاريخ 16 أفريل 1964م بمناسبة الذكرى الرابعة و العشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومما جاء فيه ما يلي : << إنه يجب أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة، و يتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، و يواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل. ولكن المسؤولين . فيما يبدو . لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وإن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم، يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية. لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة، وألا يقيموا وزنا إلا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم، وقد آن أن يرجع لكلمة الأخوة . التي ابتذلت . معناها الحق، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي . صلى الله عليه و سلم . و قد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعا ((مدينة)) تقوم على تقوى من الله ورضوان >>[20].

حمل هذا البيان تحليلا لأوضاع الدولة والوطن، حيث بين أن هناك انحرافا عن المبادئ التي قامت عليها الثورة التحريرية، وأن ما كان يطمح إليه الشعب الجزائري من مشاركته فيها من رخاء ورفاهية لم يتحقق. كما أكد أن الأسس النظرية التي قامت عليها هذه الدولة الفتية ليست نابعة من ذاتية الأمة، بل هي مستمدة من مذاهب أجنبية.

موقفه من القضية الفلسطينية:

لم تنس التضحيات التي بذلها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أجل الجزائر إلى آخر رمق من حياته اهتمامه بقضايا أمته الكبرى العربية والإسلامية، فهو يعتبر أن أمته مرهونة في وجودها بهذه الأمة الكبيرة. إن الجزائر . بالنسبة إليه . مرتبطة بالشرق مهما تباعدت عنها أقطاره، بعيدة عن فرنسا، وإن كانت قريبة منها، إنها مرتبطة بالشرق تاريخا وأرضا ولغة وعقيدة. مما يجعل اهتمامها بقضاياه اهتماما بقضاياها، وتعد القضية الفلسطينية قضية العرب والمسلمين الكبرى التي يجب أن تتوحد عليها جهودهم.

لقد بذلت الجزائر أعز ما تملك من مقدراتها المادية والبشرية في مقاومة الاستعمار الأجنبي، وهذا ما يجعل وقوفها إلى جانب القضايا التحررية في العالم، ومنها القضية الفلسطينية أمرا طبيعيا بالنسبة إليها. إن الجزائريين وقفوا إلى جانب هذه القضية في أيامها الأولى، حيث ذهبوا إلى هناك سنة 1948م مشيا على الأقدام للوقوف إلى جانب إخوانهم في جهادهم ضد العدو الإسرائيلي، وهذا بالرغم من المعاناة التي كانوا يعيشونها في وطنهم من جراء الاحتلال الفرنسي المسلط عليهم، وهذا موقف يسجله التاريخ للجزائر في وقوفها إلى جانب القضية الفلسطينية.

إن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي . بكل ما يحمله من وفاء و إخلاص للقضية الجزائرية . لا يمكنه أن يتغافل عن القضية الفلسطينية، فقد كانت الأعياد تتوالى عليه، و هو يخفي وراء حسن المظهر الذي يبدو به للناس مرارة هذه القضية، حيث كتب في مجلة (

الأخوة الإسلامية) التي كانت تصدر ببغداد في عددها المؤرخ ب 1 شوال 1372 هجري الموافق ل 12 جوان 1953 للميلاد: << وجاءت نكبة فلسطين، فكانت في قلبي جرحا على جرح، وكانت الطامة والصاخة معا، وكانت مشغلة لفكري بأسبابها ومآسيها وعواقبها القريبة والبعيدة، فلا تصور لي الخواطر إلا أشنع ما في تلك العواقب، وكأن أحزان الدنيا كلها كانت تتجمع علي في يوم العيد، وكنت أغطي باطن أمري بالتجمل، فإذا عدمت المتنفس من الرجال والأعمال والأحوال رجعت إلى العيد الذي هو مثار أشجاني، فجردت منه شخصا أخاطبه و أناجيه و أشكو إليه و أسأله و أجيبه و أبثه الشكاية من قومي غيظا على القادرين، وتأنيبا للغادرين >>[21] . لكن ماذا تمثل فلسطين بالنسبة للإبراهيمي حتى يحزن عليها كل هذا الحزن، ويملأ قلبه بالأسى، ويبدو في يوم العيد وكأن أحزان الدنيا كلها اجتمعت عليه؟

لقد كتب في المقال المذكور آنفا ما تمثله قضية فلسطين بالنسبة إليه: << كانت خاتمة النتائج أننا قربنا من صهيون ما كان بعيدا وأدنينا منه أمانيه، فالقدس محطة الإسراء وموطن أقدام محمد . صلى الله عليه وسلم . وفتح عمر، أصبح لقمة مترددة بين لهواته، و المسجد الأقصى كاثرته البيع و الكنائس و تعاونت على إخفاء مآذنه و إسكات أذانه. ويل للعرب من شر قد حل ولا أقول قد اقترب >>[22].

هنا تظهر القضية الفلسطينية . بالنسبة للإبراهيمي . بأنها قضية عقيدة قوامها القدس والمسجد الأقصى بكل ما يحمله من معاني القداسة بارتباطه بإسراء النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . و معراجه، وباعتباره قبلة أولى للمسلمين وحرمة هذا المكان لا يمكن أن تضاهي حرمة المسلم الذي يذل و تسفك دماؤه هناك.

خاتمة:

يمكننا أن نحدد المنطلقات الأساسية التي ينطلق منها الفكر السياسي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الدين الإسلامي واللغة العربية، والوطن الجزائري، وقد اعتبرها مبادئ محددة هوية الشعب الجزائري ولا يمكن التنازل عنها بأي حال من الأحوال، وهي المبادئ التي ظل يقاوم من أجلها إلى آخر لحظة في حياته.

يتميز الفكر السياسي للإبراهيمي بكونه فكرا عمليا، حيث أنه انطلق من الواقع الذي كان يعيشه الشعب الجزائري في عهد الاستعمار ليعطي البدائل التي تمكنه من التغيير، خصوصا إذا علمنا أن الشيخ كان عضوا بارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت إطارا تنظيميا لاحتواء الأفكار الإصلاحية المطروحة في الجزائر، ثم العمل على تحقيقها في الواقع.

لم يمنع بروز روح الانتماء العربي الإسلامي في فكر الإبراهيمي السياسي من اهتمامه بالاطلاع على الأفكار السياسية المطروحة في الغرب، خاصة في فرنسا لتوظيف القيم السياسية التي كانت تدعو إليها في التعامل مع الحكومة الفرنسية في الجزائر، فهذه الحكومة بالرغم من أنها كانت امتدادا للحكومة الأم إلا أنها لم تكن تعمل بقيم الجمهورية المتمثلة في الحرية، العدالة، والإخاء.

لا يمكن للاستقلال أن يتم . في نظر الإبراهيمي . ما لم تسع دولة الاستقلال إلى تحقيق المبادئ والمطالب التي بذل من أجلها الشعب أعز ما يملك من أبنائه وثرواته، ولما كان الاستعمار المندثر يعمل دائما على حفظ مصالحه السياسية، الاقتصادية، والثقافية عن طريق نخبة تبرم له الولاء، فإن العمل من أجل تقويض نفوذها يعتبر جبهة من جبهات الجهاد.

الجزائر قطعة من وطن كبير له امتداداته في العالمين العربي والإسلامي، وكل ما يحدث في هذا الوطن الكبير يجب أن يؤثر في الوطن الصغير، وهذا ما جعل الاهتمام بقضايا العرب

والمسلمين والتواصل معهم عملا جوهريا لدى الإبراهيمي، وفي مقدمة هذه القضايا القضية الفلسطينية التي يراها قضية عقائدية يجب أن تتوحد حولها جهود المسلمين والعرب.

الهوامش:

1. محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، جمعها، أحمد طالب الإبراهيمي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ج4، ص. 380.

2. نقلا عن، تركي رابح عمامرة، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2004، ص. 223.

3. نقلا عن المرجع السابق، ص، ص. 229، 230.

4. نقلا عن، نفس المرجع، ص.231.

5. محمد البشير الإبراهيمي، آثاره،ج1، ص.246 .

6. المصدر السابق، ج.1، ص. 248 ا.

7. أنظر المصدر نفسه، ج.1، ص. 256.

8. أنظر، المصدر نفسه، ج1، ص.257.

9. المصدر نفسه، ج.1، ص. 258 .

10. المصدر نفسه، ج. 1، ص. 293 .

11. المصدر نفسه، ج. 5، ص.36 .

12. أنظر، المصدر نفسه، ج. 5، ص. 47 .

13. نقلا عن، تركي رابح عمامرة،جمعية العلماء المسلمين التاريخية، ص. 219 ا

14. نقلا عن المرجع السابق، ص. ص،219، 220 .

15. محمد البشير الإبراهيمي، آثاره،ج. 5، ص,ص. 64، 65 ,

16. المصدر السابق، ج. 5، ص. 303 .

17. المصدر السابق، ج.5، ص. 307.

18. المصدر نفسه، ج, 5، ص. 304.

19. المصدر نفسه، ج. 5، ص. 304.

20. المصدر نفسه، ج. 5، ص. 317.

21. المصدر نفسه، ج. 4، ص. 217.

22. المصدر نفسه، ج. 4، ص. 218.